الجزء الأول

الشجاعة المنكسرة

قصة قصيرة

محمد قصير

الشجاعة المنكسرة

قصة قصيرة

محمد قصير

إهداء

لا أحد

القاعدة الأولى

أغلب العالم مجانين ، ومن ليس بمجنون فهو غاضب ، ومن ليس بمجنون ولا بغاضب ، فهو غبي فقط.

القاعدة الثانية

لا أستطيع أن أتصور العالم بدون مبدعين..
ولكني لا أستطيع أيضاً أن أتصوره بدون
مجانين...!.

القاعدة الثالثة

"الألم والمعاناة أمران لا مفرّ منهما للوصول إلى ذكاء كبير وقلب عميق".

الشجاعة المنكسرة

الشجاعة المنكسرة[1]

[1] مصـــطلح الشـــجاعة المنكســـرة هو لفظ آتٍ من كمبوديا، ويعبّر عن أعراض عديدة تشـــبه وتتقاطع مع أعراض الاكتئاب والقلق والمتلازمة التالية للصـدمة. وتصـف هذه الحالة الناجين من المذبحة التي قام بها الحزب الشـيوعي هناك والمعروف بـــ"خمير روج (Khmer Rouge)" في السبعينيات.

المكان: غير محدد

الزمان: مُتغير عشوائي

مشهد أخير: من أعماق اللاشعور ...

اِقتباس هام: "أنا لست مختلًّا نفسيًّا، أنا معتل اجتماعي عالي الأداء"

نعم .. هذا صحيح .. أنا رجل عصبي جدًا فوق ما تَتصور.. حياة اجتماعية ونفسية مُضْطَربةٌ شكلت شخصيتي، وها أنا أُشدِدُ على الروح الاستقلالية التي هي أكثر السمات المميزة لطبيعتي، فأنا أكتب بلا خوف، وبقليل من الاحترام للسلطة، وأمْقُتُ الخضوع للتقاليد السائدة التي وجدتها ولم أخترها، لكن وراء هذا تكمن حقيقة لها دلالتها، وهي أنني مجنونٌ ومضطرب نفسياً، هذا ما يقالُ عني .. وهذا هو الحقيقي .. أتذكر جيداً ذلك اليوم المشؤوم، يوم إلحاقي بالمدرسة الابتدائية، وهي ذات رؤية تربوية ودينية ونظام تعليمي ضيق الأفُقِ، كان لهذا تأثير سلبي على نفسيتي آنذاك دام بقية حياتي. إنّ هذه الفترة تنبئ بالكثير عني وعن تنشئتي، إذ كنت تلميذاً غاضباً مشاكساً لا ينصاع للممارسات السخيفة التي كانت تحيط به، وقد كنت منعزلاً تماماً أنظر بشيء من الاستخفاف إلى ما حولي.

كان أبي رجلاً قلقاً صارماً مهيبًا يؤمل كثيرًا في ابنه، أما أمّي فهي يوحنا البيت، من عائلة تجارية ناجحة، لكنها مختلفة تماماً عن أبي، فقد كانت شخصية اجتماعية مفعمة بالحياة، لها مواهب أدبية بلغت ذروتها لتصبح «كاتبة» تؤلف روايات رومانسية على نحو جعلها أكثر شهرة في أثناء حياتها. كان لها نفوذ مؤثر في حياتي، ولكن العلاقة بيننا لم تكن حميمية أبداً. وفيما يتعلق بزواجها، كَتَبتْ هي نفسها قائلة إنها رأت أنه لا حاجة بها لأن تتظاهر بالحب المشبوب لزوجها، مضيفة أنه هو نفسه لم يكن يتوقع منها ذلك. وبعد أن توفي أبي، راحت يوحنا المُتحررة عقلياً تواصل مشروعها المهني الخاص، وانتقلت حيث لم تَعُدْ ..

يأتي أرسطو ويغلق الأبواب في وجه المرأة لعدة قرون حينما يختصرها في مجرّد مادة، بمعنى وعاء، بينما يخصص للرجل صفة أنبل هي الشكل، والقصد هو الجوهر

والكمال .. كانت اللاعودة برهانًا صـــادقًا على هذا القول .. قرأتُ هذا القول وأنا على يقين أنهُ قولٌ صحيح يُعبر عنه الواقع .. وكان لي رأي أخر ليس مخالفًا، فقد سبق وأن أمنتُ بأن في حالة التوحش، المرأة حيوان أليف: يسـير الرجل في المقدمة والسـلاح بيده والمرأة تتبعه محمّلة بأدوات الطهي ..

لا يجب أن يكون في العالم سوى ربات بيوت، تحسن التنظيف والطهي، وبنات شابات لا يحلمن إلا أن يكنّ كذلك. ولا يجب تدريبهن على الغطرسـة ولكن على العمل والخضـوع والتعذيب..

كنت في السـابعة عشـرة عندما سـقط الخبر الرهيب فوق رأسـي .. صـدمة وجدانية هائلة، وهي انتحار أبي. لقد ترك غيابُهُ بهذا الشـكل المأسـاوي جُرحاً عميقاً في نفسـي، وأنا شـابٌ يتحسس طريقَه في هذه الحياة. وسقوطُ رمزية الأب بهذه الصـورة المؤلمة والمفاجئة، كانت لها تداعيات كارثية على نفسي.

وبما أنني كنت وحيد أبويه، فقد ازدادت حِدَّةُ هذه التداعيات. وكما يُقال: المصـــائب لا تأتي فُرادى. فقد خسِرْتُ أبي معنوياً ومادياً، ثم ما لبثتُ أن خسرتُ أمّي معنوياً، حيث لم أجد فيها مثالاً للحب، الحنان والاحتضـان. ومن الواضـح أن أُمّي قد استغلت هذا الانتحار، لتعيش حياتها بالطول والعَرْض بلا ضـوابط. لقد تحررت من كل القيود الاجتماعية، ورفضـت كل معاني الفضـــيلة، وراحت تُقيم علاقات بلا وازع أخلاقي، غادرت وغادر معها الحنان .. حتى ماتت، ولم أراها.

خيبة أُفُقِ الانتظار ظاهرةً، تحطمت صورة الأم في نفسي، كنت أنتظر أن تحتضنني بعد انتحار أبي، وتُوفِّر لي الأمن والأمان والمشاعر الدافئة، وتُعوِّضني عن فقدانه، لكن هذا لم يَحدث. عاشت حياتها كما يَحلو لها، وكأن ابنها غير موجود أصلاً في عالَمها. عاشت لنفْسها بكل أنانية وتحرر، دون أي اعتبار لابنها المكسور، الذي حَوَّلَ شقاءه الحياتي وصِدامه مع أُمِّه إلى كَراهية شديدة للنساء بلا تمييز. نعم المرأةَ مثالاً للخيانة والاستغلال والشهوة، لذلك لن أرْتبطَ بأية امرأة طيلة حياتي، ولنْ أُقِمْ أية علاقة نسائية، لا داخل الزواج ولا خارجه.

أمام الوجود ومَعهُ بؤرة للحزن والكآبة، الحياة شرٌ كاملٌ، لا مكان فيها للفرح والسعادة. وما يُسمَّى بالسعادة عبارة عن تقليل كمية الأحزان والمصائب لا أكثر ..

كانت المدرسة بالنسبة لي بمثابة سِجنٍ، أو بتعبير أدق زنزانة بلا قضبان، أستطيع القول أن ما كنت أتلقاهُ فيها هو ذلك النوع من التعليم الذي يحول الإنسان من شخص مفكر بالفطرة إلى ما يشبه الدآبة التي تحمل أسفارًا على ظهرها، المتعلمون عندنا أشخاص يذهبون إلى المدرسة ثم الجامعة عدة سنوات ويعودون منها، ويمتحنون تبعا لذلك ويأخذون التقديرات طبقا لحضورهم، ويأخذون شهادات الفراغ من الرسائل المملاة وإبدال النسخ المطبوعة إلى نسخ محفوظة أو مصورة .. أما فلسفة الأخلاق والقيم التي كانوا يتغنونَ بها، فقد لخصتها عبارة كانت مكتوبة على جذران المدرسة بخطٍ مضغوط تقول: **إنّما الأممُ الأخلاقُ ما بقيتْ فإنْ همُ ذهبتْ أخلاقُهم ذهبوا**، وكان مكتوب أسفل هذا القولِ المفعم بروح

الشـــعراء الأغبياء .. ***" إذا وجدت المرحاض مقفلاً، يمكنك التبولُ هنا .. وشـــكرا"***، عبارة لخصت كل شيء.

درستُ الفلسفة في إحدى الجامعات اللامرموقة، توجهي إلى طريق الفلسفة هو محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وتعويضـــاً عَن خيبات الأمل في طفولتي وشـبابي المبكِّر، وانتقاماً مِن أحزاني وأحلامي الضـــائعة، كنت على دراية بفشـــل المدرســـين في الجامعة، لكن هؤلاء لم يكونوا من اهتماماتي، ولم ألِج أسوار الجامعة حباً فيهم، بل حباً في الفلسفة، ومرّ الوقتُ كما يمرُ قطارُ حياتي أمام أنظاري، قطارٌ يمضـــــي بلا توقف و نحن ركاب هذا القطار. كثيرون هم من يتمنون العودة إلى محطة ما من حياتهم كانوا قد أضـــاعوا فيها لحظات من عمرهم . وها هو يواصــــلُ تقدمه نحو محطات المســــتقبل بكل ما تحمله لنا من مفاجأت، ها أنا قد وجدتُ نفسي مُعلِماً للفلسفة في سنٍ صغيرة، وهذا مؤشرٌ واضحٌ على عبقريتي، ودليلٌ على أنني قد كرَّستُ حياتي للعِلْم والفلسفة، والتفتيش عن ماهيات المعنى في عالَم يتساقط حَوْلَي، والبحث في تفاصــيل الوجود ضـــمن حياة تنهار في داخل جســـمي وخارجه، وإيجاد أجوبة منطقية للأسئلة الوجودية المتكاثرة في وجداني.

يقال إن الإنسان لديه ثلاثة أسئلة وجودية، تقض مضجعه إذا لم يستطع الإجابة عليها.. وتنبثق من هذه الأسئلة الثلاثة كل الأسئلة الوجودية الأخرى، بسيطة كانت أو كبيرة، إذْ أن مهمتها أن تفسر للإنسان وجوده وتعطيه هدفًا ورسالة.

فإن لم يُجِب عنها إجابة لا تتسق مع الرؤية التي يراها لنفسه والسلوك الذي يقوم به، فذلك يؤدي إلى الانفصام والشك وحيرة كالّتي أصابتني ..

جئت، لا أعلم من أين، ولكنّي أتيت ولقد أبصرت قدّامي طريقا فمشيت وسأبقى ماشيا إن شئت هذا أم أبيت كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟ لست أدري!

معنى الحياة ، هو سؤال فلسفي يدور في ذهني، سؤال يتساءل عن أهمية الحياة أو الوجود بشكل عام. أُعبِرُ عنهُ بعدة صيغ كـ*"لماذا نحن هنا؟"* ، *"ما الفائدة من الحياة؟"* و*"ما الغرض من الوجود؟"* ، وهو محور التكهنات الفلسفية والعلمية واللاهوتية[2] خلال التاريخ، قادتني أبحاثي في هذا السياق إلى كم كبير من الأجوبة المقترحة من قبل خلفيات مختلفة، *"الحياة جميلة إذا كان فيها هدف يضعه الفرد في حياته، لأنه سيبقى يواجه الحياة بكل ما فيها من صعوبات، صحيح أن عثرات الحياة كثيرة و مؤلمة، لكن الذي لديه إرادة قوية قادر على أنْ يتخطى كل تلك الصعوبات ليصل الى أهدافه، وعند وصول الفرد إلى الغاية التي يبتغيها تتحقق عنده السعادة وتكون الحياة بالنسبة إليه جميلة ولها معنى من خلال الدروس التي أعطته إياه في الصعوبات التي مر بها فتعلمنا الحياة معنى الصبر والجد والمثابرة و عدم اليأس"* ..

وإذا كنت عزيزي القارئ مُصدِقًا لما قُلْتُهُ قبل قليل فأنْتَ بلا شكٍ قارئٌ غبي لا جدوى مِنْكَ، "أنا أتألم إذن أنا موجود". هذه هي الحقيقة التي توصلتُ لها، حقيقة قاسية لكنها حقيقية، "يولد الناس، ويؤلم بعضهم بعضاً ثم يموتون". قادني هذا القول إلى سؤال الموت، وهو

[2] اللاهوت أو علم اللاهوت هي الدراسة المنهجية للطبيعة الإلهية، وعلى نطاقٍ أوسع، للعقيدة الدينية.

حســـب وجهـة نظري يحمـل معنيين، الأول هو المتعـارف عليـه، بتوقف الوظـائف الحيويـة للجسد، والآخر، موت الشغف بالأشياء والأشخاص – أو اللاشعور – إضافةً إلى الروتين. ألا تشـعُر هي مشـكلة ينبغي حلها فورًا! لكن الموت هنا هو نتيجة لاحقة لسـبب سـابق ألا وهو الألم، أو الاعتياد عليه..

لا يمكنني إنكار جملة "الألم يعلّم الإنســان"، جملة لا تعني بالضـرورة أن ما يُعلمنا الألم معرفة مثل بقية المعارف. إنه تعبير عن الهوية الضعيفة للإنسان. فعبر الألم يتعلم الإنسان أنه مختلف عن الآلهة وعن بقية الكائنات الأخرى. بهذا المنطق يأخذ الألم طريقه إلى ذاته وإلى الآخرين وإلى العالم، طريق معبّدة بالصراخ. إن الألم استحالة الميتافيزيقيا[3]..

إن ما يصـطلح عليه بتجربة السـلبي، محدّد للظاهرة الإنسـانية. فالإنسـان يعيش تحدّي الآخر، سواء كان هذا الآخر مرضاً، ألماً، أو موتاً، وهو لا يعيشه في "ما بعد"، بل هو مشكِّل لحقيقته كإنسان ..

هكذا هي عبثية البحث عن السـعادة في التاريخ الإنسـاني، الإنسـان لم يخلق للسـعادة. الحيرة تجاه العالم تجعل الإنسان يلوذ بالفرار من ذاته ..

يؤكدُ تصـوري هذا تمظهرين للسـلبيّ: الألم والعجز عن تجاوزه على مسـتوى المعنى، كمحددين للشـرط الإنسـاني. فالإنسـان يطمح إلى السـعادة والمعنى، لكنه محكومٌ بالفشـل في سـعيه إلى ذلك. ففي رأيي، الألم وغياب المعنى أو القدرة على فهم الألم وتجاوزه، شـرطان لا

[3]ما وراء الطبيعة أو الماورائيات أو الميتافيزيقا (بالإنجليزية: Metaphysics) هو فرع من الفلسفة يدرس جوهر الأشياء. يشمل ذلك أسئلة الوجود والصيرورة والكينونة والواقع. تشير كلمة الطبيعة هنا إلى طبيعة الأشياء مثل سببها والغرض منها.

يمكن تجاوزهما، وهذا ما ذهبت إليه الفلسفة الوجودية التي ترى أن الإنسان يدخل في علاقة مع الشروط الأساسية لكينونته في تجربة السلبي.

وها أنا أتساءل للمرة الألف: لماذا هذا الامتياز للسلبي؟ ولماذا يرتبط الجوهري في الإنسان بتجربة الفقد والخسارة وليس بالطموح والتحقق الإيجابيّين؟ إنّ المرض وفهم الإنسان هما قطبان في عملية فهم واحدة. إن هذه الحيرة تجاه العالم أو هذا الخوف الذي لا موضوع له، يجعل الإنسان يلوذ بالفرار من ذاته، إلى ما أسماه هايدغر باللاأصالة، وما يعنيه ذلك من استسلام للأمر الواقع والحقيقة السائدة.

إنّ الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يتألم روحياً، وهو في ألمه ذلك يقترب من الفلسفة. إنه كائن فلسفي. إنّ من شأن أنثروبولوجيا سلبية تدرس الإنسان أن تسلّط الضوء على تهافت القراءة الميتافيزيقية التقليدية، التي تنطلق من عالم منظّم وإنسان خير.

أبحاثي في متناقضات الحياة والمعنى قادني إلى قتل التفاؤل الميتافيزيقي، لأننا ببساطة لا نعيش في أفضل العوالم كما يعتقدُ البعض، بل في "أسوأ العوالم الممكنة". بل أبعد من هذا القتل المشروع وصلت إلى استنتاج أن المشكلة لا تكمن في الألم بحد ذاته، ولكن في غياب جواب عن سؤال: لِمَ الألم؟ بعيداً عن الأجوبة المزيفة التي لا تقدم شيئا سوى وهمُ الوهمِ. الألم يتطلب التأويل، وعلاقة الإنسان بالألم تظل علاقة تأويلية بامتياز، قد تهدف إلى تجاوزه كما قد تعمل على مصالحتنا معه وإقناعنا بالاعتراف به كمحدّد من محدّدات شرطنا الإنساني، وقد يدفعنا التأويل أيضاً إلى كبت الألم بشكل عقلاني أو إلى السقوط في اليأس. وعلى هذا الأساس يكون التأويل هبةُ الألم.

أيام معدودة، ســرعان ما انتقلَ فشــلي العاطفي وانكســاري العائلي إلى ميدان العمل، فأخفقَتُ في حياتي التدريســية، حيث عمِلتُ كمُدرسٍ للفلســفة في الجامعة. ولم أحْظَى بأي تقدير، ســـواء من طلابي أو زملائي. ولم أُحَققْ نجاحاً من أي نوع. لم تَحْظَ شـــخصـــيتي بالاحترام، ولم تكتســب أفكاري تقديراً وانتشــاراً، ولم يقبل أحد على مؤلفاتي. لقد انتقلتُ من فشــل إلى فشــل، لذلك قررتُ العزلة والابتعاد عن الناس والاختفاء عن الأنظار، فحصــلتُ على غرفة في فندق مُهمشٍ، وقررتُ الاستقرار فيه وحيداً وبائساً.

المكان: غرفة الفندق المهجور

الزمان: الوقت "ليس حقيقيا"، هو "بناء" إنســـاني للمســـاعدة على التفريق بين الزمن الحالي وإدراكنا للماضي

مشهد أخير: همسات قاتلة لا واعية ...

اِقتباس هام: "لكلٍ جنونه ، وقد تمثّل جنوني في أن أعتبر نفسي سوياً ، سوياً بشكلٍ خطِر ، ولما كان الآخرون يبدون لي مجانين ، فقد انتهى بي الأمر إلى الخوف منهم ، وإلى الخوف منّي أكثر".

لمَ قد يخطر على بالك أني مجنون؟

فالمرض لم يفسد حواسي، ولم يدمرها، بل على العكس تمامًا جعلها أكثر حدة. وأول هذه الحواس، حاسة السمع والتي أصبحت حادة جدًا. فأنا يا عزيزي أسمع ما يُسمع ومالا يُسمع، سمعت كل الأشياء التي في السماء وتلك التي في الأرض، سمعت حتى الأشياء التي تقبع في الجحيم. إذًا كيف تتهمني بالجنون؟ أنصت إليّ جيدًا! ولاحظ كيف أستطيع بهدوء وعقلانية أن أحكي لك القصة كاملة.

من الصعب إخبارك كيف تبلورت الفكرة داخل رأسي لأول مرة، لكني بمجرد تخيلها علقت داخلي، فأصبحت تراودني ليلة تلو الليلة، فبات رفضها مستحيلا. هدف..؟ لم يكن هناك ثمة هدف. كره..؟ أوه لا، لا يتعلق الأمر بالعواطف أبدًا، الفتاة لطيفة في تعاملها، فلا هي مرة أهانتني ولا هي مرة خطّأتني. ربما تقول أنني أسعى وراء ذهبها..؟ لا يا عزيزي لم أرغب أبدًا في سرقة ذهبها. أو ربما السبب هو الفانتازيا الجنسية[4]، لكن الظاهر أنني غير مقيد بالموضوع الأساسي لها وهو الجسد، أو بالحضور الفعلي لها، مثلما يكون الجوع مقيداً بالحضور الفعلي لموضوعه وهو الطعام، فلا أحد يمكنه تناول صورة تفاحة، بينما يمكنه في الوقت ذاته الاستمناء على صورة مثيرة، أو تحت تأثير خيال لا يستحضر الجسد البشري بشكل مباشر، وإنما يستحضر أجزاءً معينة منه، أو أشياء مادية تحرك رغبته الجنسية. حسنًا سأخبرك.. أعتقد أنه شعرها. نعم..! كان شعرها يشبه شعر أمّي، أسود يميل للبني ومصفَفٌ بنفس الطريقة التي كانت أمّي تصفِفُه بها. في كل مرة أنظر إلى شعرها، كنت أشعر ببرودة

[4] الخيال الجنسى (بالإنجليزية: Sexual fantasy) ويسمى أيضا الأحلام الجنسية (بالإنجليزية: Erotic fantasy) وهي عبارة عن الصورة العقلية أو النمط الفكرى لدى الشخص والذي يحرك النشاط الجنسي

تسـري في أطرافي، وكأن دمي كان يتجمد في عروقي شـيئًا فشـيئًا، وهكذا قررت أن أحمل على عاتقي خطف حياة هذه الفتاة، لأتخلص من هذا الشعر إلى الأبد.

الآن أنت ما زلت تتخيلني مجنونًا، المجانين يا صـــديقي لا يعرفون شـــيئًا. أما أنا.. آه ليتك رأيتني حينها، كان يجب أن تراني كيف كنت أفكر بعقل يملؤه الحكمة، وبشـــخصـــية يملؤها الحذر، وبعين بصـيرة عزمتُ على فعل ما كنت أفكر به. نزلت عليّ رحمة وسـكينة عجيبتين خلال الأسبوع الذي يسبق قتلي للفتاة، لم أشـعر بهما من قبل. وفي كل ليلة، تحديدًا في منتصف الليل كنت أمسك بمقبض بابها في الفندق وأفتحه بكل هدوء، فأنا لا أريد إزعاج الفتاة المسـكينة، آه يا لرقة قلبي! صـنعت فتحة تسِـع رأسـي، ثم أدخلت فانوسًـا داكن اللون، مغلق الجوانب، لا ينفذ الضـــوء منه. بعدها أدخلت رأســـي من خلال تلك الفتحة، أوه، لو رأيتني كيف أدخل رأسـي بمكر وخبث لضـحكت عجبا! أدخلته ببطء شـديد، فأنا كما أخبرتك لا أريد أن أيقظ مضـــجع الفتاة. لقد أخذ هذا الأمر مني ســـاعة كاملة كي أتمكن من رؤيتها وهي نائمَةٌ على سريرها. ها..! هل يمكن لرجل مجنون أن يكون بهذه الحنكة.. ها؟ أخفضت ضوء الفانوس بحذر شديد، شديد جدًا، لأن مفتاحه اللعين كان يحدث صريرًا مزعجًا، ولكني أبقيت شـعاع ضـوءٍ نحيل ووجهته ليسقط على شـعرها. مرت سـبع ليال طوال وأنا على هذه الحال، كل يوم وفي منتصـف الليل أكرر ما أفعله، لكن لسـوء حظي كنت أجد شـعرها دائما أسـفل الوسـادة، فاسـتحال عليّ فعل فعلتي. فلو كانت الفتاة هي التي تثير غضـبي لأتممت مهمتي من أول ليلة وأرحت نفسـي، لكن كان شـعرها هو السـبب، شـعرها الشـرير. كنت كل صـباح أذهب بكل وقاحة إلى حجرتها وأتحدث إليها بكل جرأة، أناديها باسـمها، بنبرة عطف وحنان، مسـتفسـرًا إياها عن حال ليلتها في هذا الفندق المهجور. لعلكم أدركتم كم كانت هذه

الفتاة قد بلغت من الجمال ما بلغ حتى يخطر في بالها أن أحدهم، والذي هو أنا، يحدق فيها وهي نائمة كل ليلة عند الساعة الثانية عشر. لأنني ببساطة كنت غير مهتمًا بجمالها وهي واقفة أمامي، فكيف وهي نائمة. وفي الليلة الثامنة كنت أكثر حذرًا عندما فتحت الباب، كنت أفتحه ببطء شديد، حتى أن عقارب ساعتي كانت تتحرك أسرع من يدي! شعرت في تلك الليلة بمدى قوتي الهائلة وفطنتي العظيمة، شعورٌ لم أشعر به من قبل. حاولت جاهدًا احتواء مشاعر الانتصار، أخيرًا سأفعل ما خططت له! فتحت الباب شيئًا فشيئًا، وفكرتُ أن المسكينة لم تحلم حتى بأفكاري وأفعالي هذه، أضحكتني، فضحكت بصوت منخفض لكن يبدو أنها سمعتني، لأنها تحركت فجأة، وجلت وثبت مكاني. ربما تَحْسبُنِي الآن أنني انسحبت وتركت تلك الفتاة بسلام! لا يا عزيزي، فلقد وصلت إلى مرحلة متقدمة جدًا. كان الظلام يلف غرفتها، وكانت النوافذ مؤصدة بإحكام خوفًا من اللصوص، فالفندق مهجورٌ وغير أمنٍ، أراحني هذا الأمر من أنه لن تستطيع رؤية فتحة الباب التي صنعتها، بل لن تستطيع رؤية أي شيء. استمريت في دفع الباب رويدًا رويدا...

فهمَمت حينها بفتح الفانوس، لكن إبهامي انزلق فجأة من على القفل الصفيحيّ مما أفزع مضجع الفتاة المسكينة وجعلها تقفز من نومها وتصيح مذعورَة "من هناك؟" بقيت في مكاني من دون حراك، ولم أتفوه بكلمة واحدة. بقيت هكذا ساعة كاملة، لم أحرك حتى عضلة! وفي هذه الأثناء لم تنم الفتاة، بل بقيتْ مستيقظتًا تتسمع، تمامًا مثلما كنت أفعل، ليلة تلو الأخرى، أستمع إلى دقات ساعة الموت، تكْ..توكْ..تكْ..توكْ!

وبعدها ســمعت أنينًا خافتًا، لقد كان أنينُ هلعٍ من الموت. فلم يكن ذاك الأنين الصــادر من الألم أو الحزن، أوه لا.. لم يكن كذلك، بل كان صــوتًا مخنوقًا من أعماق روحٍ مشــبعة بالخوف. إنني أعرف هذا الصوت جيدًا، ففي منتصف كل ليلة وعندما يغمض العالم عيناه، كان هذا الصــوت يصــدر من داخلي أنا، من أعماقي، بصــداه المروّع الذي كان يكاد أن يدفعني إلى الجنون! قلت إني أعرفها، نعم أعرفها جيدًا وأعرف كيف تشــعر هذه الفتاة الآن وأشفق عليها، مع أني كنت أضحك في سرّي. كنت أعلم أنها كانت تنام مستيقظتًا من أول صــوت ســمعته، منذ ذلك الحين ومخاوفها بدأت تتصــاعد، كانت تحاول أن تقنع نفســها أن مخاوفها لا صحة لها، لكنها لم تستطع. فأخذتْ تقول لنفسها: "هذا ليس إلا صوت الريح في المدخنة، أو فأر يتجول في الغرفة، أو صــريرُ صــرصــار الليل، أو أو أو..." نعم لقد كانت تحاول طمأنة نفســها بهذه الافتراضــات لكن بدون جدوى، كل هذا لم يفلح بشــيء. فالموت يحبو نحوها، ويلفها بظله الأسود. لك أن تتصور مدى الشعور المُحزن والكئيب الذي كانت تشعر به الفتاة المسكينة، فقد كانتْ تشعر بالموت يلفها من كل جانب، مع أنها لم تكن تدري بوجودي في غرفتها.

أوه.. لقد انتظرت طويلا.. طويلا جدًا، لكن الفتاة بقيتْ مســتيقظتًا. فقررت أن أصــنع شــقًا صــغيرًا جدًا في الفانوس، فخرج منه شــعاع نحيل خافت، نحيل كخيطٍ من خيوط العنكبوت، ومباشرة وقع على شعرها.

كان شعر أمّي، وكان غضبي يزداد كلما حدقت به. رأيته بكل وضوح، أسود يميل للبني، يقشعر بدني منه. لم أكن أرى في الغرفة كلها إلا هذا الشعر اللعين لأن شعاع الفانوس كان موجهًا نحوه فقط.

ألم أخبرك من قبل؟ ألم أخبرك بأنك مخطئ؟ هذا ليس جنونًا بل حدة الحواس. لقد دغدغ أذني صوتٌ مشوش ومنخفض وحاد كصوت ساعة لُفت بقطعة قطن، بالكاد تسمعه. لكني عرفت هذا الصوت جيدًا، لقد كانت ضربات قلب الفتاة. إنها تُشعل غضبي كما تشعل دقات الطبول في المعارك حماس الجنود.

ما زلت واقفًا بلا حراك، حاملًا فانوسي وبالكاد ألتقط أنفاسي. وبينما كنت أحاول تثبيت الضوء على شعرها محاولا انتزاعه من الجذر، كانت دقات قلبها تزداد كقرع الطبول، إنها تتسارع أكثر فأكثر، وترتفع أكثر فأكثر في كل لحظة. لابد أن الفتاة المسكينة بلغت من الخوف ما بلغ! أقول لك إن صوت دقات قلبها تزداد ارتفاعًا في كل لحظة، كل لحظة.. هل أنت واعٍ بما أقول؟! لقد أخبرتك أنني عصبي، وأنا صدقًا كذلك.

ساعة الموت تصدع بدقاتها الصمت الرهيب لهذا الفندق العتيق، دقْ.. دقْ.. دقاتها المزعجة تدفعني إلى خوف لا أستطيع السيطرة عليه. مع ذلك ظللت واقفًا في مكاني لبضع دقائق، ولكن نبضات قلبها ترتفع وترتفع ارتفاعا فظيعًا، حتى ظننت أن قلبها سينفجر. وبدأ ينتابني قلق آخر، لربما سمع أحدهم صوت نبضات قلبها المرتفعة! أوه... لقد حانت ساعة الفتاة، ولا يجب أن أنتظر أكثر. صرخت بكل صوتي وأضأت الفانوس كله، ثم اندفعت إلى وسط الحجرة اندفاعًا. لقد صرخت صرخة واحدة، واحدة فقط. في لحظة جرَرتها إلى

الأرض وأطبقت السـرير فوقها إطباقًا. تبسـمت فرحًا، فأخيرًا أتممت فعلتي. بعد دقائق معدودة سـمعت صـوتًا.. صـوتًا مكتومًا، إنه صـوت نبضـات قلبها! لا يهم، فالصـوت لن يزعجني، فلن يخترق الجدران، ولن أسمعه. كما أنني أبعدت السرير من فوقها لأتفحصـها، ووضـعت يدي فوق قلبها لعدة دقائق، لم يكن هناك نبض، لقد كانت جثة هامدة. حُق لي أن أنام الآن ، فلن يزعجني شعرها بعد ذلك.

ها.. أما زلت تظنني مجنونًا؟! صدقني ستتراجع عن رأيك عندما أصف لك حكمتي في اتخاذ الاحتياطات لإخفاء الجثة. بدأ الليل ينكشف، كنت أعمل بسرعة لكن في صمت. أولًا وقبل كل شـيء بدأت بتقطيع الجثة، قطعت الرأس والذراعين والسـاقين، ونزعت الشـعر اللعين من جذور رأسها.

اصبر.. ستكتشف الآن أين حكمتي.

بعدها أخذت ثلاثة ألواح من الخشـب الذي يغطي أرضـية الغرفة ووزعت أعضـاؤها بين قطع الخشـب، بعدها أعدت الألواح إلى مكانها بكل مهارة وذكاء، بحيث لا يُمكن لأي عين بشرية -ولا حتى عينها هي- أن تشك بأي شـيء. ولم يكن هناك أي شـيء بحاجة إلى التنظيف، لا بقع دم أو غيره، فقد جمع حوض الاستحمام كل شيء. ذكيٌ فطن!

كانت السـاعة الخامسـة تمامًا عندما انتهيت من هذا العمل المُجهد، ولكن الليل كان حالكًا كأنه في منتصـفه. طرقات متتالية، أحدهم يطرق الباب. ذهبت لأفتح بقلب مرتاح، فليس هناك شـيئًا أخشـاه، أليس كذلك؟! فتحت الباب فإذا بثلاثة رجال عرّفوا بأنفسـهم بكل لباقة بأنهم ضـباط شـرطة. أخبروني أن أخبارًا وصـلتهم بأن أحد الزبناء في الفندق سـمع

صرخة مُفزعة خلال الليل، واشتبهوا بأن يكون هناك جريمة مدبرة، فأرسل مركز الشرطة هؤلاء الضباط للتحري عن الأمر وتفقد المنطقة.

ابتسمت.. فليس هناك شيئًا أخشاه، أليس كذلك؟ رحبت بالسادة الضباط، وقلت: الصرخة؟ ليست إلّا صرختي أنا من كابوس مفزع. أخبرتهم بالطبع عن الفتاة المسكينة وأخبرتهم بأنها ذهبت إلى الريف تاركة من وراءها أغراضها في الغرفة. أخذتهم في جولة حول غرفتي، وطلبت منهم أن يبحثوا، ويبحثوا جيدًا، أكملنا الجولة وأخذتهم إلى غرفتها، وجعلتهم يتفقدون محتويات الغرفة جيدًا. أريتهم ممتلكاتها، وكيف أنها مرتبة ولم يمسسها أحد. ولحماستي الشديدة وثقتي بأن يُستحال على أحد أن يكتشف فعلتي، أحضرت كراسي وأجلست رجال الشرطة في غرفة الفتاة، وجلست أنا -لثقتي الزائدة- واضعًا كرسيي فوق بقعة الجثة، مُثبتًا لنفسي انتصاري الساحق.

كانوا ضباط الشرطة مقتنعين بكل شيء أقوله، فقد أقنعتهم أخلاقي الرفيعة بأن كل شيء على ما يرام. كانوا يسألون وأجيبهم بكل حماس وشجاعة، ثم أخذوا يتحدثون عن جرائم مألوفة. وبعد هُنيهة شعرت بأن وجهي أصبح شاحبًا فتمنيت في سري لو أنهم يذهبون. ثم أخذ رأسي يؤلمني ألمًا فظيعًا، وخُيّل إليّ أن رنينًا يصدح في أذني، تمنيت لو أنهم يذهبون، لكنهم مازالوا هناك يتحدثون. ازداد الرنين وضوحًا أكثر فأكثر بشكل مستمر، حاولت أن أتكلم بأريحية أكثر لأتخلص من هذا الشعور المربك، فإذا بالرنين يزداد وضوحًا، لأكتشف فيما بعد أن هذا الصوت المزعج لم يكن مصدره أذني!

لا شك أن وجهي الآن ازداد شحوبة، على الرغم من هذا أكملت حديثي بفصاحة وبنبرة عالية واثقة. لكن الصـــوت مازال يرتفع، يا إلهي ماذا يمكنني أن أفعل؟ لقد كان صـــوتٌ مشـوش ومنخفض وحاد كصـوت سـاعة لُفت بقطعة قطن. التقطت أنفاسـي برعب، ومازال ضـباط الشـرطة يتحدثون ولم يسـمعوا ما أسـمع، حاولت التحدث بسـرعة، تحدثت عن أمور تافهة بغضـب وعصـبية، لكن الصـوت ظل يرتفع ويرتفع. يا إلهي لم لا ينصـرفون؟ أخذت أمشـي ذهابًا وإيابًا على أرضـية الغرفة بخطوات قوية غاضـبة ملمحًا لرجال الشـرطة بأن ينصـرفوا، حنقت واهتجت وسـببت ولعنت! أخذت أهز كرسـيي وأحكّه على الألواح، مازال الصـوت يرتفع ويرتفع ويرتفع، ومازال رجال الشرطة يتحدثون ويبتسمون بكل أريحية. أوه يا إلهي.. يا قادرًا على كل شـيء، أيُعقل أنهم لم يسـمعوا هذه الضـوضـاء، ألم يسـمعوا هذا الصـــوت المزعج؟! لا لا.. بل ســمعوا وشــكّوا.. إنهم يعرفون.. يعرفون كل شـــيء، وكل تمثيلهم هذا ما هو إلا استهزاء بي وسخرية من رعبي! هذا ما ظننته، وهذا ما أظن. لقد كان أي شيء أرحم من هذا العذاب! يمكنني تحمل أي شيء ولا هذه السخرية!

لم يعد بإمكاني تحمل هذه الابتســـامات المنافقة. شـــعرت أنني لابد أن أصـــرخ وإلا سأموت! والآن مرة أخرى، أنصتوا.. أعلى فأعلى فأعلى!..

صرخت بذعر "أيها الأوغاد"... يكفي خداع! إنني أعترف.. أعترف بالجريمة! انزعوا الألواح، هنا.. هنا، إنها دقات قلبها اللعين"! يكفي .. أه هذا حلٌ جيدٌ .. القفز من النافذة والسير على نحو فلسفة أبي، كان لدي إحساس عميق بأننى لست حقيقة تمامًا، بل إننى زيف مفتعل ومصـنوع بمهارة، أعيش هذا الإحســاس طيلة الوقت، بل أظن أحيانا أننى لســت إلا

إنتاجًا سـينمائيًا فنيًا أتقنوا صُـنعه، ***سـأسـقط للأبد فى جوف الظلام، نبياً قتيلاً وما فاه بآية، انتحاره كان آيته!!***

نهاية الجزء الأول

قصة قصيرة

محمد قصير

الشجاعة المنكسرة

قصة قصيرة

الجزء الأول

أعلم جيدًا عزيزي القارئ أنك غير راضٍ عن هذه النهاية، وأنا مثلك تماما، وسأعود حيث العودة ستكون أحلى من البداية، أنا مُتعب في عالم الأموات حيث هم أحياء...